معروف الرصافى

الشاعر المجدد والمفكر الثائر

الوقت ظهراً ، واليوم الجمعة فى السادس عشر من آذار (مارس) ١٩٤٥ كنت أسير فى موكب حاشد ضاقت به دروب الأعظمية من ضواحى بغداد . وأكثر هذا الخلق من الشباب الواعى يتدافعون مع جموع الدهماء ، متسابقين إلى حمل نعش الشاعر الذى غنى بأحاسيس أمته وهى تتوجع بقيود الاستبداد والاستعباد ، وصور لها بقصيده مآسى الجمود وظلمات الجهل ، وعبر بألحانه عن نشدانها الحرية والاستقلال والمجد - فى هذه اللحظات ونحن نشيع جثمان معروف الرصافى إلى الحفرة التى كتب على ابن آدم أن يستريح فيها الراحة الأبدية كان يساورنى سؤال ملح :

ما نبغ الرصافى واستفاضت شهرته فى البلاد العربية ، وقد أذاعت أشعاره صحف مصر منذ أربعين سنة إلا ولمح المدركون فيها ظاهرتين سجلهما تاريخ النهضة الادبية الحديثة عندنا : الأولى نصوع الديباجة وشدة الأسر فى النظم وفصاحة الكلم ، والثانية نزعة التمرد على الظلم وتعشق الحرية مع فهم صحيح لمقومات الحياة . فكيف نحلل الظاهرتين فى هذا الفتى ؟ ومن أين تأتيا له وهو من نعلم فى ثقافته وبيئته ؟

يولد النابغة ، ويولد معه عالمه الخاص ، فتلتمع مواهبه ، فاذا هو يرى بعينيه مالا يراه بنو جلدته ، ويسمع بأذنيه مالا يطرق سمع إخوانه ، وتحرق نظرته آفاقاً بعيدة وينفذ فكره إلى أعماق سحيقة . وهده حال تنطبق على الرصافى ؛ فقد جدد ديباجة الشعر العراقى ، فحاكى أثره فى وادى الرافدين أثر البارودى فى وادى النيل ، مع أنه تخرج من المدرسة العتيقة وشب وترعرع فى جو الأدب التقليدى من السجع المتكلف والنظم المفكك والنسج المهلهل ، و برز مفكراً جهورى الصوت فى قولة الحق من بيئة تملكها الخنوع وغشى على قلوب أهليها طغيان الحاكين بأمرهم من فلول الغزاه والمغيرين .

ولكن لا ! إن هذه المواهب التى أفرغها الخلاق فى معروف الرصافى إنما هى انتفاضة من عبقرية الأمة العراقيـة ، تجود بها الأزمان بين عصر وعصر ، وتختار لسطوعها شخصية تـكون عصامية حيناً ، وعظامية حيناً آخر .

فهذا الشعر المجلجل بفصاحة الضاد ، قد تحدّر إلى شاعرنا من وحى سماء السواد بزرقتها الصافية ، وتموجات دجلة والفرات فى لججهما المصطخبة ، وهذه المعانى الكثيرة قد تناقلتها الأجيال إلى أديبنا ، من سليقة أمراء الشعر العباسى ذى الطابع المذهب فى تاريخ الأدب .

أما الثورة على عسف الطغاة ، ومصاولة الاستبداد ، فهذه النفس العراقية ، وهذا الإباء العربى ، وهذه الكرامة القومية ، التى عجزت سيوف القاهرين وحديدهم ونارهم عن أن تعرى الشعب منها ؛ فقد تتعب الحوادث الجسام الأمة الكريمة فتسكن فترة من دهرها ولكنها لا تنحل إلى الأبد ، وقد تهمد جذوة الشمم حقبة من السنين غير أنها لا تنطفئ تماماً ، حتى إذا أرهقت الأيام النفوس، واعتصرت المظالم القلوب ، تفجرت ينابيع السجية الأصيلة ، فظهر بطل الفكر فى الميدان ، وطلع وجه القائد على الناس ، وارتفع صوت النابغة فى قومه .

ها نحن أولاء نتطلع إلى الماضى غير البعيد نريد أن نتعرف حال العراق قبل نصف قرن أو يزيد قليلا ، لنتخيل البيئة التى ولد فيها معروف ونما ، وشدا الأدب وتلقف المعرفة ، فنهتدى إلى بواعث الحس فى الشاعر ، ونستبين موحيات الوعى فى المفكر .

بلاد صحراوية ، أهملتها السلطنة المرهقة ، إذ عفى عليها الزمن ، فخملت بعد شهرة ، وخربت بعد عمران ، وذوت بعد ازدهار . فيها أنشأت الدول الناهضة حضارات خالية وسمت تقدم الإنسانية بمياسم العز والسؤدد فى العهد القديم والعصر الوسيط . وعليها كنست الحكومة العاجزة غبار الإهمال ، وأنقاض المغازى ، وتهديم الفتوح .

وكأن استبداد المماليك من باشوات بغداد ووزرائها فى غفوة الانحطاط لم يكن كافياً ، فمزقت تضامن الشعب غارات القبائل وشحناؤها المتواصلة ، وقد استخفت بهيبة الحكام ، وأغراها ضعف الدولة فى قاعدتها القصية ، فظل هذا القطر الغنى

بخيراته الطبيعية غارقاً فى سباته حتى بعد أن تنبهت مطامع الاستعمار إلى خطورته وحيويته فى طريق الهند . وقامت فى أذهان حراس الإمبراطورية مشروعات الخط الحديدى الذى يربط جزرهم بمستعمراتها الضخمة ماراً بوادى الفرات ، وأخذت اللجان الدولية التى تقصده لحسم النزاع على الحدود بين إيران ودولة بنى عثمان تكتب لحكوماتها التقارير المفصلة عن هذه الكنوز المدفونة من بعيد . وقام أصحاب الأموال يحسبون لأسواق بين النهرين ألف حساب ، وشخصت عيون المنقبين الأثريين إلى ما تغطيه أطلال نينوى وخرائب بابل من أسرار لما ارتفع على هضابها من عروش وهياكل .

فى هذه الفترة هبت على الشرق الأوسط نسمة من يقظة فكرية بدأت بحملة نابليون على مصر ، ونهض محمد على باشا بأعباء مملكة جديدة أرادها عربية شرقية تتدرع بعلوم الغرب وفنونه ، لتنافس سلطنة عثمانية إسلامية وهنت منها القوى وأخذتها رعشة الانهار . واقترنت هذه الأحداث بمجئ البعوث الدينية وإرساليات التعليم الأجنبية من أوربا ، فانفتحت للتمدن الأوربى مسارب إلى الشرق . ولكن العراق بقى منعزلا أول الأمر عن كل هذا النشاط لبعد رقعته عن مراكز النهضة الغربية ، ثم أخذ يتأثر بعض الشئ لصلته بالأقطار العربية الأخرى فى اللغة والدين وأصول الثقافة القديمة وبخاصة الشام ومصر .

أما الحياة الفكرية العراقية فى المرحلة التى نتحدث عنها فكانت محصورة فى محافل الدين وحلقات المساجد . ومجالاتها فى الغالب بغداد والنجف والحلة والموصل ؛ وفى الأخيرة ولدت فكرة الثقافة الجديدة فى المدرسة والمطبعة اللتين أسسهما المبعث الفرنسى للآباء الدومنيكيين ، وكان الأدب شرعة الواردين عند القوم ومهوى أفئدة النابهين؛ لأنه يعتلج فى القلب ، وأدواته الحس والذوق ، وعماده الموهبة الفطرية . وطبيعى أن يتقدم الشعر على النثر لهذه العوامل ، ولأن المآتم الحسينية فى مدائن الفرات يهزها الانشاد ، ومجالس البيوتات ودواوين الولاة فى حواضر دجلة تحفل بالنظيم ، وبفضل هذين المجالين احتفظ العراق بروح العزة الموروثة ، واندفع إلى استحياء المجد التليد ، وتناقل المفاخر العربية تحت نير السيطرة التركية ، فصان اللغة الفصحى من الاندثار فى ربوعه . أما

الأسلوب والطريقة، فكلاهما تقليديان، يتأثر الناظمون بالسلف ويترسمون خطوات الشعراء القدامى، للصنعة فيه آثار بارزة، والتكلف باد مفضوح . ويكفى أن أذكر ثلاثة من شعراء هذا الطور بل أعلامه، وهم عبد الباقى العمرى، وعبد الغفار الأخرس، والسيد حيدر الحلى، ليحكم الملمون بتاريخ الأدب العربى فى القرن التاسع عشر على أن معروفاً الرصافى سباق فى هذه الحلبة، يصح لنا أن ننعته بالمجدد الذى رجع ديباجة الشعر العراقى إلى روعتها أو بعض روعتها بعد أن أخلقتها عصور التقهقر .

ولد معروف فى بغداد سنة ١٨٧٥ فى أسرة لا مال لها ولا نشب . أبوه عبد الغنى محمود ينتسب إلى عشيرة كردية تقطن بين كركوك والسليمانية تسمى (الجبارية). وفى زعم العشيرة أنها علوية النسب، ويسلم لها أهل كردستان بذلك. فان صح ادعاؤها فهى عربية النجاد . أما أمه فاطمة بنت جاسم فهى من عشيرة القراغول بطن من شمر الذين يمرحون فى سهول العراق، وهو ثانى ولدين لأبويه، وقد اختضد أخوه البكر فى مهد طفولته . وحدث أن صحيفة بغدادية قالت وهى تؤبن الرصافى : إن أباه كردى وأمه عربية؛ فبرم بهذا التصريح صديق له من أساتذة الأدب فأشار فيما كتبه عنه فى مجلة عراقية أن الفقيد كان قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته؛ وأورد طرفاً من قصيدته التى مطلعها :

عهدتك شاعر العرب المجيدا فمالك لا تطارحنا النشيدا

وخلص منها الكاتب إلى هذا الإنكار : « فمن قال لك إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا؛ فقد أبعد . . . » . فعادت تلك الجريدة ونشرت مقالا ضافياً حول العرق وكيف أنه لا علاقة له بمواهب الرجل، وأن إنتاجه العقلى هو الأصل، ولا عبرة بأن يكون الرصافى غير عربى الدم، فهو عربى الروح والنزعة والثقافة إلى غيرها من شجون الحديث .

والذى تلقيته منه — رحمه الله — قبل خمس وعشرين سنة وأنا أكتب سيرته فى مجموعتى « الأدب العصرى فى العراق العربى »(١) إنه من أب كردى وأم عربية، ولم يكن يتحرج من هذا مطلقاً، حتى أنه اعتاد — كما أقرأنى

(١) طبع منها جزآن فى مصر (المطبعة السلفية سنة ١٩٢٣)

فى بعض مكاتباته — كما سأله كاتب أو مؤلف عن ترجمته أن يحيله إلى هذا الكتاب . هذا كان شأنه بحيث لم يكن يحفل بحسب موروث أو جاه دنيوى بل كان همه فى الحياة الجوهر لا العرض ، كما سنفصله فى بحثنا .

وكان أبو الشاعر عبد الغنى عريفاً فى الجيش العثمانى يتكلم التركية والكردية غير العربية - ولا يعجز عن القراءة والكتابة بأبسط مقدار ، خاض غمار الحرب الروسية التركية ، فلما نجا من القتال مال إلى مسلك الدرك فى صنف الخيالة ، فقضى معظم وقته نضو سفر على ما يتطلبه نظام الخدمة فى قوة الدرك . والمنطبع فى ذهن الولد عن والده أنه قد بدا له تقيًّا ورعاً يواظب على الصلاة وقراءة الذكر الحكيم ، كما يؤثر عنه حدة الطبع ، والعنف فى تأديب ابنه إذا خالف له رأياً .

ويظهر أن الطفل نشأ فى حضن أمه فانطبع حبها فى قلبه ، وأودعته خصائص نفسها وإن لم تقل الشعر وتكتب فى السيرة ، أو لعله لانفراده بعطف الأم فى غياب الأب فى الأغلب من الأوقات غرز فى نفسه هذا الأثر العميق لحنان الوالدة .

روى صديقه الأستاذ طه الراوى فى مقاله عنه أنه زاره يوماً فرآه منفعلا تنطق آثار الدموع فى محجريه ، فسأله ما به . فقال : « سمعت قينة إلى جوار منزلى تغنى غناء شجيا ، فأذكرنى غناؤها البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو على حنوًّا ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحاً » .

وطالما ردد معروف لاصحابه أن أمه كانت مرجعه فى كل شئ حتى بعد أن جاوز العقد الأول من حياته ؛ فهى التى أرسلته إلى الكتاب صبيًّا ، وظلت ترعى عمله فى المدرسة حتى تسأله عما يدرس فيها . ولم تكن تهجع إلا إذا أمسكت به إلى جانبها . وكانت تتصاعد من صدره زفرة وهو يذكر شديد حدبها عليه وسهرها على راحته ، وعنايتها بطعامه وملبسه ، فيحن إلى كنفها مهما باعدت السنون بينه وبين طفولته . وكم أسف لأن الحظ لم يسعده على وفائها بأداء واجبه نحوها إلى أبعد حد . وخير تعزية له أنه كان يصلها ببعض الدراهم وهو غائب عنها فى إقامته بدار الخلافة ؛ فلما اشتعلت الحرب العالمية ، وسقطت بغداد بيد الجيش البريطانى المحتل انقطعت عنه أخبارها ، وذكرها يتردد فى صدره . وكأن

عقله الباطن دله على مفارقتها الحياة فى غيبة ولدها الحبيب ، فنطق وهو فى الشام عام ١٩٢٠ يشهد ألاعيب السياسة وتقلبات الأيام وقد اجتواه أصدقاؤه وأنكره معارفه ، لأن السياسة أفسدت بينه وبينهم ، بقصيدة تعد من عيون شعره ، وفيها كثير من فلسفة الحياة وحقائق الدنيا ، موضوعها وعنوانها « ضلال التاريخ » ن فيها إلى أمه ، ويتحرق إلى رؤيتها بكبد حرّى :

لعمرك أقصانى الزمان المفرّق ... هل أنا من بعد التشاؤم (١) معرق (٢)
خليلىّ هل من بالرصافة عالم ... بأنى الى من بالرصافة شيّق
بلاد إذا ما هبت الريح نحوها ... تمنيت لو أنى بها أتعلق
ابيت على شوق وقلبي موثق ... بهمى ، ودمعى فوق خدى مطلق
إذا ما تذكرت العجوز بكيتها ... بدمع به الأهداب تطفو وتغرق
وما شرق بالدمع يا أمّ وحدَه ... ولكن بروحى عند ذكراك أشرق
ويهفو بقلبي الشوق حتى كأنما ... تخطفه من بين جنبىَّ سوذق
فيا أمَّ صبراً إن لابنك همة ... إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبق
تضايق عنها الدهر مستعظما لها ... وأهلوه عنها يا أميمة أضيق
أكلّف منها الدهر ما لا يطيقه ... فليس بعار أننى فيه مخفق
لقد صغرت بغداد عن أن تضمها ... وما وسعتها بعد بغداد جِلقُ

نظم الرصافى هذا النسيج ، وهو لا يعلم أن أمه قد غيبها الثرى ، فلما عاد إلى بغداد بعد شهور افتقدها فلم يجدها . ولا أعلم أنه نظم شعراً فى رثاء أمه ، وقد تنحبس العواطف وهى فى عنفوان هيجانها ، فيكون هذا الحصر هو الشعر الحبيس المكروب ، وهو يقول : « إننى عند أوبتى إلى بلدى لم أقو على رؤية البيت الذى كنت أعيش فيه مع والدتى ، ولم يسعفنى جلدى حتى إلى سلوك الطريق المؤدية إليه . »

وعند ما نتعرض لألوان شعر الرصافى ، سنقف عند تفاهة شعره الغرامى ، وضعف حرارة الحب فى أناشيده ، فنحلل هذا على ضوء موقفه من المرأة ، ومذهبه فى الجنس . ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم شعراً جيداً فى الدفاع عن حقوق النساء فى الحياة ، والانطلاق من عبودية الرجال ، والحملة على الحجاب ، إنما

(١) صار فى الشام . — (٢) صار فى العراق .

عاطفة البنوة وتقديس الأمومة ظلت لصيقة به فانبثت فى تضاعيف شعره ولا سيما فى الطور الأول من مجده الأدنى ؛ فله قصيدة يتناشدها الفتيان إذ تحفل بها جل الكتب المدرسية فى لبنان وسورية والعراق وهى « التربية والأمهات » ؛ وفيها يقول :

ولم أر للخلائق من محل يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسناً بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت فى جنان كمثل النبت ينبت فى الفلاة
فيا صدر الفتاة رحبت صدراً فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضممت الطفل لوحاً يفوق جميع ألواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت تصاوير الحنان مصورات
لأخلاق الصبى بك انعكاس كما انعكس الخيال على المِراة
وما ضربان قلبك غير درس لتلقين الخصال الفاضلات

و إذا آردنا أن نتعرف شكل الرجل وسمته رأيناه طويل القامة، عظيم الألواح ممتلئ الجسم ، قوى البنية ، أسمر اللون ، أسود الشعر والعينين ، تشوب بياض عينيه حمرة خفيفة ، وظل بصره حادًّا ، فلم يستعن بنظارات ، إلا أن عينيه أصيبتا بالمرض فى أخريات أيامه ، وقد درج على التؤدة فى مشيته حتى فى اكتمال شبابه وصحته. وكان يحمل مخصرة على مألوف الذوات فى عصره ، ثم صارت عصا يتوكأ عليها بعد أن هدَّته السنون وزعزعت هيكله الأوصاب .

بعد أن بلغ معروف الثالثة من عمره حملته أمه إلى كتّاب فى الحى الذى يقطنانه ، وكانت المعلمة فى هذا الكتاب امرأة ، والتلاميذ الصغار من الجنسين . وتنقل بعده إلى عدة كتاتيب تيسر له فى حجراتها الضيقة وأسلوبها العقيم . وفى رهبته من قصبة «المنلا» وصياحه أن يختم القران العظيم . ولشدة حسه أبدع فى رجولته فى وصف هذه الخلايا التى تكون إمَّا للدجاج حيناً ، أو كهوفاً ومغاور فى الأحايين .

وفى سن الثانية عشرة دخل مدرسة نظامية هى المدرسة الرشدية العسكرية ؛ لأن هوى الأهلين كان عهدئذ أن يتخرج أولادهم ضباطاً فى الجيش . وهذا سبيل الجندية أو إمارة الجند . وكانت المدرسة الأميرية الوحيدة فى مدينة السلام ، تعلم فيها ثلاث سنوات ثم رسب فى الامتحان ؛ لأن التعليم فى عمومه باللغة التركية، لسان الحكومة ، فانزعج الحدث المرهف الذهن ، وغادر معهده إلى غير رجعة .

وبعد لأى اتجه اليافع اتجاهاً جديداً فى الدرس الذى كانت أمه تحضه عليه ، فوضع العمامة على رأسه وأخذ يختلف إلى المدارس الدينية العلمية فى جوار الجوامع وحجرات التكايا ؛ فتتلمذ بادئ الرأى على الأستاذ محمود شكرى الألوسى الذى عرف بأنه علامة العراق ، واشتهر أديباً واسع الاطلاع مذ ألف كتابه « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » فمهد له المكانة المرموقة . وأحسب الالوسى صاحب اليد على الأدب العراقى بما ألقاه فى روع هذا الفتى الموهوب من تعلق بالأدب وقد التفت إلى سوهبته الفياضة وحافظته القوية ، ومثابرته على الدرس ، فصار أثيراً عنده ، وفتح له خزائن مكتبته فعب منها طالب الأدب الناشئ الظمآن ، ما وسعه الوقت آناء الليل وأطراف النهار ، تمده قريحة متوقدة وينهض به نبوغ مهيأ ، فكان شاعر العراق المتفوق ، ومفخرته الخالدة .

ولنا أن نصرح بأن الرصافى تسمية أطلقها أستاذه شكرى عليه . وفى ذهن الناس فى الزوراء مقام « معروف الكرخى » الصوفى الشهير ، فتنبأ المعلم لتلميذه أن سيسجل التاريخ « معروفاً رصافيًا » لا فى الصوفية التى تواضع عليها الفقهاء ، ولكن فى الشعر الفصيح ، وحرية الفكر التى عنت لها كل سلطة ظلوم

تعلم الرصافى من الآلوسى مبادئ العربية وشيئاً من أوائل الفروع ، واتصل بعد ذلك بجماعة من أشياخ ذلك العهد ، منهم الشيخ عباس القصاب ، والشيخ قاسم القيسى . و إذا استثنينا معلمه الأول الذى تخطى الجادة البالية فى نزعة إصلاحية سلفية فالآخرون من أساتيذ الشاعر شديدو الحرص على التزام الخطة التى درج عليها من تقدمهم . وقد لازم صاحبنا شيخه المفضل اثنتى عشرة سنة وتخرج عليه فى علوم العربية وما يتصل بها ، فحفظ المتون من الاجرومية إلى ألفية ابن مالك وشرح السيوطى عليها ، ومن هذه المرحلة بدأ ينظم الأبيات من بحر الرجز . روى عن نفسه لصديقه الأستاذ الراوى قال : « حبب إلىّ فى بدء دراستى العربية

التبسط فى فهم الشواهد وشروحها وتذوق ما فيها من بلاغة ، فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات ، فاجتمع فى حقيبتى وفى حافظتى منها شئ كثير ؛ وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذياً ، فقرضت الشعر وسنى دون السادسة عشرة ، فاجتمع عندى منه طائفة صالحة . وقد كان القريض يأخذ من وقتى الشئ الكثير . » عند هذا الاعتراف يلتفت الراوى فيعزو جزالة الشعر الرصافى ورصانته وروعة ديباجته إلى هذه النشأة والانطباع ؛ إذ أن شعر الشواهد مقصور على شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاسيين ، وهو أمتن شعر عرفته العربية .

ويؤثر عن معروف أنه ألف ، لشدة ولعه بالشواهد وجمعها ، كتاباً سماه « شواهد القطر » وقد أمعن فى حفظها بحيث جاوز المخزون منها فى حافظته عشرة آلاف بيت ، مما دعا أستاذه إلى أن يطلق عليه لقب « كتاب الشواهد » . وتسجل نشأة الشاعر أن قصيدته الأولى كانت فى مدح معلمه .

أما بقية ما أوغل فى نفس التلميذ من تعاليم الشيخ السلفى الكبير فهى هذه العزيمة الماضية فى عيشة غليظة وصلابة فى الفكرة ، ومقت للفخفخة والمظاهر ، وعدم الركض وراء المال ، حتى ليؤثر عنه أنه فى ذلك الطور من حياته وهو شاب حاد الشباب عنيفه كان كثير التهجد فى الصلاة يتلو القرآن الكريم باكياً . وقد أراد الأستاذ عبد المسيح دريز فى تعليقه على ديوان الرصافى سنة ١٩٣١ أن يفسر تأثير هذه الفلسفة فى نفس الشاعر والمفكر فأوصلها إلى أن تسامت فى القراءة والتعمق فى الدرس والانغماس فى العواطف الدينية إلا أن عشقاً دهمه فى تلك المرحلة فمال به إلى وجهة أخرى . غير أننى أرى هذه الانطباعات ظهر تفاعلها فى ذهن الأديب الخصب فى مضامير حياته فى الاجتماع والسياسة ، حتى إذا أدركته الشيخوخة ، واعتكف فى كوخ له فى قرية الفلوجة ناجيا من صخب بغداد وتكالب الجشعين وأفاعيل السياسيين والحاكين فيها ، تفرغ للتأليف ، وانصرف أكثر وقته لكتابة السيرة النبوية ، فوضع كتابه « اللغز الأعظم أو الحقيقة المحمدية » . ووجدناه فى هذا الكتاب يناقش كثيراً من العقد فى حياة محمد (ص) بالقياس إلى حيرات الزعماء السياسيين ومؤسسى الممالك .

رفائيل بطى